



أم والدتي، اسمها قرين اسم أمّنة، وآمنة اسم أم والدي التي لا ذاكرة لي عنها، وحتى والدي ليس لديه إلا ذاكرة فقيرة عن أمّه. قال مرة لما سألته عنها: مرّصت بعد ولادة عمك محمد. عمك محمد كَرَدَهَا. وأضاف مازحاً "كُصْتُو جَلْحَه". نقلوها إلى حلب حيث توفيت ودفنت هناك.

أسأل: تعرف مكان قبرها؟ قال: زرت قبرها مرتين مع جدّك، وحاولت في مرة ثالثة عندما كبرت، ولم استدل على القبر.

أمّا حَبَابَة أُمُونَة التي عاشت طويلاً فكانت عمشاء مقوسة الظهر تدبّ على الأرض بخطوات واهنة بطيئة. يقولون إن والدي ورث منها لون عينيها الأخضر الزيتوني، لكننا حقيقة لم نر بوضوح لون عيني حَبَابَة أُمُونَة، إذ غالباً ما كانتا مزرورتين يسيل منهما دمغ تتلقاه بيمسّه "محرمة" لا تفارق يدها.

تزر حبابة أمونة بيتنا مرة كل شهر أو كثر قليلاً، تأتينا قادمة من بيت خالي الوحيد الباقي على الحياة في القرية المجاورة لقربتنا.

تقول أمي: وهي تعاین جهة الشمال عندما يلوح لها سوادّ يعتلي الصهرة التي تختفي خلفها قرية خالي. (روحوا تَلْفُوا حَبَابَتِكُمْ.. مسكينة ما تجدّي طريقها)

اش عرفك إنها حَبَابَة أُمُونَة ؟ نسأل

هي.. هي، قلبي يقول هي. تجيب بيقين.

طَلَبَ أُمِي هَذَا يُسْتَجَاب فوراً، لا يعقبه تأفّف ولا حَرْد. تتدافع للقائها ركضاً. أمّا هذه المرة، همست لأمي بعد ما تأكّدت أنّ لا أحد غيري سمعها (أنا رايع يّووم.. لا تقولي لِحدا!!)

تجحت في التسلل ولم يلحق بي أحد. مع كل خطوة أُنْفَت لأتأكّد، وبكل خطوة أمني النفس بالحصول على قطعة سكرٍ إضافية، من ذلك السكر الذي له شكل دوائر أو أصابع. سكرنا المخطط بخطوطٍ متناوبة بين الأحمر والأبيض،



سكّر هشّ طيّب المذاق، يتحلّب الريق من رؤيته وأحياناً حتى من تصوره، من أجله نترقب الباعة الجوّالين ونفرح لمجيئهم، ومن أجله أيضاً نسرق البيض ونجز الصوف من ظهر الأغنام المصابة بالجرب؛ لنبادله بقطع الشُّكر هذه. كُنّا نرى فيه، شخصياً لا أزال، أنه حلوى الجَنَّة الذي وعد بها الله عباده الصالحين .

في منتصف الطريق وعلى كتفِ الوادي قبل أن نلقاها، يغرينا التراب الناعم الدافئ اللَّعبِ به وذلك برفع أثوابنا إلى المنتصف، ونطيع بمؤخراتنا العارية أختاماً على شكل حُفٍّ جميل. يومها أعجبتني الشبه الشديد بين الطبعة التي تركتها وخفّ البعير، وخطر ببالي استغفال حبابتي مستغلاً عدم امتداد نظرها إلى أبعد من بضعة أمتار، قلت: شفتي البعير حباب، هناك هو، مر من هنا.. وحتى شوفي هذا أثرِ جدمه!

طبعت على خدي قبلاً رطبةً. جالت بعينيها الكليتين الأفق حاجبة ضوء الشمس بيدها (لا والله يا وليدي.. البعير تركته بالبيت! هذا أثر طوي..ك) تقصد "بالبعير" كنية عائلة زوجها، جدّ أمي. لم أفهم قصدها، ولما سألتها، أجابت أنه اسم جد أمك!

أبهرتني الاكتشاف الذي أسمعه أول مرة أنّ جدّ أمي اسمه بعير، ونويت نشر اكتشافي بين إخوتي! وعند لحظة وصولي للبيت مصطحباً حبابتي سألت أمي: يووم صحيح جدك اسمه بعير؟

لم تعجبها النبوة الساخرة. وقالت اسمه بعير، مو بعير.

اسم جدّ أمي شكل مادة لمتأكدتها أحياناً، وللمزاح مع حبابتي. خاصة عندما يلف الحزن الحباية متذكّرة من رحلوا، شاكيةً العجز، طالبةً من الله أن يعجّل بأخذ أمانته. نسألها: إن كان البعير هو من جاء يخطبها لابنه؟ وهل خطر ببالها أول وهلة بما أن الأب بعيراً سيكون العريس كُعوداً؟ ونضيف تصوري حباب لو أنك متزوجة كعوداً! تنهي فصل المزاح هذا بإخفاء ابتسامة خفيفة بالمحرمة التي لا تفارق يدها وتقول: اتركوا الميتين بقبورهم.

تلك المرة لم أسأل حبابتي أمونة كم يوماً ستبيت عندنا، ولا عن الخرافات التي ستحكينا لنا، فقد تعلق كياني كله بلحظة حصولي على مكافأة استقبالها، منتظراً أن تمدّ يدها إلى جيب قِطْشِ الجوخ الواسع الذي ترتديه طيلة أيام



السنة كي يدفئ عظامها كما تقول، وتخرج السُّكَّرَة.. مرّ دهرٌ قبل أن تمدّ يدها إلى جيبها، ومرّ دهرٌ آخر وهي تعالج إبرة المِرْقَز التي تغلق الجيب، ودهر ثالث لتخرج الصِّرَّة من عمق الجيب. صرّة حبابتي رافقتها طول حياتها التي نذكرها، قد تتغير بعض محتوياتها، لكنها دائماً موجودة في الجيب، ودائماً تحتوي على خيوط متشابكة، ومكحلة صغيرة تكوي بكحلها عينيها الدامعتين أبداً، ومسبحة طويلة تنتهي بشرشبية خضراء. داخل الصرّة هناك صرّة صغيرة أخرى فيها مونتها من علك البُطْم. عندما لاح لي اللون السحري الأحمر والأبيض لقطع السُّكَّر من بين مخزون صرتها سال لعابي، وبحصولي على قطعة منها دسستها فوراً في فمي. وفوراً أيضاً تندمت على لهوجتي. أخرجتها. سكرتي الآن بقبضة يدي الملوثة بالتراب، أشد عليها بقوة خوفاً أن تفلت من يدي. أتخيل أنني أقرطها حتى النهاية، وأجفل. يا لطيف كيف لسكرتي أن تنهي بهذه السرعة؟ لا، لن أقرط سُكَّرتي، سأمصّها. أعاود مصّها وإخراجها والعصّ عليها بباطن كفي، مرة وثانية وثالثة. حتى ذابت في فمي. كاد قلبي ينفجر حزناً وأسفاً، وكتعويضٍ لا يعوّض ألحس ما علق بباطن كفي من أثر حلاوة السُّكَّرَة ومن التراب.

لحباية أمونة رائحة الخضيرة والحنة. من لحظة وصولها تضعها أمي في طيشت الغسيل، وهي كطفلة صغيرة تقعي مستسلمة ممسكةً بأطراف طَّشْتِ الغسيل عندما بقشط جلدها كيس الحمام شاكية من الصابون الذي دخل عينيها. بعد تنشيفها تضع أمي رأس حبابتي في حنّنها، تمشط شعرها بالمشط الخشبي الخشن ثم بمشط عظم ناعم لإزالة الصئبان، كل ذلك يتم وهن يتبادلن الحديث عن الحال والأولاد والعمر الذي يجري بسرعة، ويتحلّين بالنميمة عن زوجة خالي. بعد الحمام تلبسها أمي ثوب كودري كحلي اللون بورودٍ صفراء ناعمة، ثم تدوف الحنة وتحني شعرها وشعر حبابتي. تجمّلان بالحنة أطافر أصابع اليدين والقدمين وباطن الكف وكعبي القدمين لإخفاء التشققات. وتفيض رائحة الحنة مألوفة البيت، هذا الطقس يتكرر بشكل دائم كلما جاءتنا حباية أمونة.

بعد الحمام والحنة تغفو حباية أمونة على بساط ملفوفة الرأس بخرقٍ كي تَمْتَصَّ ماء الحنة الزائد، وتتحول أمي النشيطة كحلةٍ إلى أميرة مرفوعة الرأس متصلبة العنق، تمس مساً خفيفاً قطرات ماء الحنة المنزلة خلف أذني الحباية وعلى رقبتها بخرقة بيدها لتنشفها. تتجول أمي في مملكتها بهدوء، تنظر إلى موجودات مملكتها من أعلى محاذرة الاحتكاك بها، مكرمةً نفسها استراحة قصيرة حتى تجف الحنة. كنت أحب لحظة أمي هذه .



إغفاءات حبابة أمونة القصيرة تتكرر عدة مرّات في النهار. تغفو في المشراقة أو بجانب الصوبة شتاءً، وفي ظل الدور ضحىً وعند العصر في الصيف. وقبل غفوتها تحرص على إبقاء داسومتها ومسبحتها بأمنٍ. داسومة حبابتي مصنوعة بالكامل من الجلد المدبوغ والمصبوغ بلون فضي معتم ونعل مسطح بدون كعب. فهي تخشى عليها من كلب البيت الذي يحرسها وبهزُّ بكسلٍ، كلما اقترب منها أحد. حارسها الأمين هذا تجذبه أحياناً رائحة الجلد فيسحب الداسومة ويلوكها. أمّا مسبحتها ذات التسع وتسعين حبة، والمصنوعة من خشب الزيتون المطهّم برائحة الخضيرة فيحلو لنا اللعب بها، وشم رائحتها. ونستخدمها أحياناً كلوح حساب بإنقاص عدد معين من حباتها لنحزّر الباقي، هذه المسبحة هي الشيء الوحيد الذي ورثته أمي من أمها، حافظت عليها بحرصٍ شديدٍ لفترة طويلة حتى بعد أن فُقدت بعض حباتها، وكلما تلف خيطها أعادت لضمها بخيطٍ جديد. تقول هذه من رائحة أمي ستبقى معي مادمت على ظاهرة الدنيا.

أحياناً يترافق صحو حبابة أمونة من إغفاءاتها المتكررة على صوت الراديو، راديو سانيو بجلد لامعٍ برتقالي اللون، كان مفخرة العائلة؛ فقد حظيَّ عند شرائه بمباركاتٍ أكثر مما يحظى به مولودٍ جديد، وعندما يسأل أحد عنه أو يبدي إعجابه، يعتدل أبي في جلسته وهو يحتضنه معدداً مزاياه. يقول: أهم ما في هذا الراديو أن بطارياته ببطنه، وبه موجتان، وله صوت صافي بدون تشويش بسبب هذا الأنتيل، ويمد يده ويعدل الأنتيل المطوي على السطح الأعلى للراديو ويسحبه على طوله. كذا ندلل راديونا حقاً. أمي نسجت له كيساً من الصوف الملون الجميل بشراشبٍ تتدلى أسفله، وحاملٍ كي يعلّق على الحائط حتى لا تطاله أيدينا. ولم يكن مسموحاً لأحد منا باستخدامه علناً إلا أبي وأخي الأكبر، لكن كانت هناك دائماً فرصة لاستخدامه بغياهما.

تصحو الحبابة من إغفاءتها على صوت الراديو. تسأل إن كان هذا المغني، أي مغني، فيما إذا كان هذا فريبيد الذي يغني؟ تقصد فريد الأطرش! أظن أنها لم تحفظ اسماً لمطرب غيره.

لا حَبَاب مو فريد..

أريد أسمع فريبيد. حِطْلِي الراديو على فريد !

الحضور الكبير لحبابة أمونة في ذاكرتنا هو في الحكايات والخِرافات التي كانت تحكيها لنا في ليالي الشتاء الطويلة.



كنا وما إنْ ينصرف أبي إلى الأوضة، حتى نبدأ بتملقها كي تحكي لنا. فنتحجج بالتعب وبذاكرتها التي لم تعد تعي شيئاً، بينما نشرع نحن بتنشيط ذاكرتها بتعداد أسماء الحكايات و الخُرُوفات التي نحب سماعها.

نقول خورفيينا على بورزان أبو الحيل، تقول نسيتهها.

جمل غيدا، تقول: طويلة وما تخلص للصبح.

بوينيص أو تاووز : هذّن يخوّفن والدينا ليل.

الشاطر حسن، محمد ابن أمي وأبوي، سعلوة حباة غبنة العطية... هي تتحجج، ونحن نلح. أحياناً كان ينتابنا شيء من الخوف والحزن أن تكون حبايتي فعلاً نسيته خروفاتها! فمن يصدق أو يتصور الحباة -أي حباة- دون حكايات وخرافات!

هذه المناورة والمساومة تتكرر دائماً لتنتهي بفصل التشويق الذي نرتاح له كإعلان لبدء الحكايا. تقول: "أخورفلكم خويرفه، وإذبناتكم مقيرفه إچا الواوي وأكلها! قلت : ليش يا واواي؟ قال أنا واوي والعصا تضريني؛ قلت ليش يا عصا؟ قالت: أنا عصا والنار تاكنني؛ قلت ليش يا نار؟ قالت آني نار والسيل يطفيني؛ قلت: ليش يا سيل...". نشكو لأمي المشغولة بإعداد الفاورقة "البوشار" على بابور الكاز، أو رثو جورب لتتوسط لنا لتنتهي حبايتنا هذا المونولوج، الذي كنا نتصور أنها تستطيع أن تستمر إلى الصبح، في سماع أشياء تشكو لها، تبتسم أمي وتبقى محايدة ومشغولة بما بين يديها.. أخيراً عندا تقول حباة أمونة : هناك وانتم سالمين. نرد بصوت متحفز مع حوزة في المكان للالتصاق بها، وأنتِ سالمة حَبَاب.

(كان في كل حكايا وخرافات حباة أمونة، سمعناها مرّات ومرّات، وفي كل مرّة كأننا نسمعها لأول مرّة، لكن الحكاية التي تعنونها حباة أمونة بحكاية "الوليدة محمد" وتقول عنها أنها حكاية حقيقية، ومحمد هذا لا يزال يعيش على ظاهرة الدنيا في مكان لا تعرفه حتى جن الأرض، طفش من ثار قبيلة الجن لقتله ابن ملكهم، وتعهدهم بمحو دابر ذريته. تلك الحكاية لا تزال حية في وجداني.



تقول حكاية "الوليدة محمد" وهي حكاية بقلب حكاية، بدأت عندما اشترط والد البنت التي أحبها "محمد" وأحبته ليرضى تزويجه منها أن يذهب إلى خربة "الكُعود" المسكونة بقبيلة من الجن والسعالي ليلاً، ويغرس في أعلاها خنجره. قال له سأنتظر رجوعك هنا، في مجلسي هذا، حتى شروق الشمس، إن رجعت؛ قالها هامساً. تعتبر ابنتي زوجةً لك على سنة الله ورسوله، والحاضرين شهود. شرطي هذا، هو سياك "مهر" ابنتي.

يقال أنه لم يجرؤ أحد قبل "الوليدة محمد" بالاقتراب من الخربة، ومن تجرأ على ذلك اختفى ولم يظهر له أثر أبداً، وأنَّ الخربة مسكونة بقبيلة كبيرة من الجن، محاطةً بالأشواك والعاقول والبَّلان، تتحول إلى أبرٍ ومُخطٍ وأخله متى اقترب انسيُّ منها، ويتحول ترابها إلى جبر يغلي ويفور تصعد منه أبخرة ودخان يعمي العيون. هناك تصفر الريح، ويسود همس وبربرة وأنين بالسنة غير مفهومة تجعل من أشجع الشجعان يفقد عقله. هذا ما كان يعرفه الوليدة محمد ويعرفه كل من عاش في الديرة.

عندما وصل محمد إلى أطراف الخربة ألقى السلام قائلاً "السلام عليكم يا أهل الأرض" بناءً على نصيحة همس له بها أحد الحاضرين، وأضاف الهامس له نصيحة أخرى، ستري أمك وأبوك وأقاربك وجيرانك يطلبون العون، إياك أن تحوّل عن فرسك أو تنظر بعين أحد منهم، في هذا سلامتك!

أناه الصوت رداً على السلام (لو كلامك سبق سلامك لكنك أكلتك وكرغطت عظامك). خطى محمد خطوة الأولى في الخربة فلقي والده يطلب منه شربة مي كي يسترد روحه التي تفارقه؛ فلم يلتفت إليه. الخطوة الثانية استقبلته أمه فاتحةً ذراعها لتحضنه، وهي تقول له هلا بوليدي ابن بطني، اللي رضع حليب صدري؛ فعبر من خلالها. في الخطوة الثالثة ظهرت له حبيبته وهي تغمز له أن يتبعها إلى خلوة، تجاوزها ولم يلتفت إليها. في الخطوة الرابعة استنجدت به أخته من حيفٍ يلحق بها... في الخطوة الخامسة والسادسة والعاشر والثلاثين، كان يظهر له عم وخال وجد وأخ وصديق، كل منهم يطلب شيئاً، وعند الخطوة الأربعين، وهو يغرز خنجره في الأرض، شعر بثقل قفز على كتفه وخنقه، ومن حلاوة الروح التي شعر أنها لا بد مفارقتها، تشهدُّ بالشهادتين، عندها ظهر له ما كان يخنقه "رجلي تيسٍ أسود". استجمع شجاعته واستل سيفه وبضربة واحدة قطع رجل التيس، ولما خف الضغط استدار وضرب العنق وقطعه وحمل الرأس وعلقة بركاب فرسه؛ فسمع فور تعليقه الرأس صوتاً ينادي: منصور يا منصور، فرد الرأس



المقطوع (منصور مصرور على ركاب الفرس، منصور معلِّك على حارج الفرس) عند هذا الرد من الرأس المقطوع وهو ذروة الحكاية، تبسمل أمي وتحوقل، تضرب بباطن كفها كنفها الأيمن ثم الأيسر، تمسح بيد صدرها فوق القلب ويبيدها الأخرى تمسّد رأس أقرينا إليها وهي تردد "بسم الرحمن الرحيم، اللهم اجعل ذكرهم خفيفٌ علينا". وهنا أيضاً يبلغ خوفى مداه. أحب خوفى هذا من الحكاية وأعشقه. خوفى يتيح لي أن أدفن نفسي بحضن أمي أو حبابتي.

يعود الوليدة محمد حاملاً الرأس المقطوع، ويرميه وسط الحاضرين، تدور عينا الرأس بمحجريهما على الحاضرين طالبة حسوة ماء، مقابل كنز مخبوء فيه مال أكثر من مال قاروون، لكن لم يجرؤ أحد إعطاءه الماء، عندها يخرج فحيح من الرأس قبل انطفاء العينين موجهاً كلامه للجميع سنقطع دابر ذريتك إن بقي هذا بينكم، طارفاً بعينيه اتجاه محمد. يتشاور القوم ويطلبوا من محمد أن يأخذ عروسه ويرحل من الديرة. وإلى الآن لا يعرف أحداً أين ذهب.

نسأل حبابة أمونة إذا شاهدت مرة سعلوة، وكيف هو شكلها؟ تصمت وكأنها تحاول تذكر شيء وبصوت واهن تقول "اليوم ما عاد في جن ولا سعالو، الناس هي صارت جن، الجن والسعالى اختفت من يوم قلحت الناس الكاغ، والكاغ اللي تُفْلح بسكة حديد لا تسكنها السعالو. الحديد والسعالو ما يجتمعو، وهذه الإبرة - إبرة المرقرز - تحميني، وما ضل حدا إلا ومعاها إبرة مسكّر بها زيجو.. من يومها أصبح لدي اعتقاد أن من يحميننا من السعالى أبر المرقرز التي تشبكها لنا الأمهات بدل أزرار أثوابنا الضائعة.

كنت في المرحلة الثانوية عندما توفيت حبابة أمونة، رحمها الله، على بعد 80 كم. لم أحضر مأتمها، وأول ما خطر ببالي سؤال الندامة الذي لم نسأله لحبابة أمونة. كيف عرفت اسم فريد ولماذا أحببت أغانيه؟

الكوچر: أو الانتجاع، الذهب لطلب الكلاً في موضع فسيح يكثر فيه العشب.
قطش: يشبه الجاكيت، للنساء والرجال، غالباً يكون من الجوخ
الزيج: فتحة الثوب عن الصدر .

الكاتب: [صالح الحاج صالح](#)